الانا في خطبة
الامام علي بن الحسين (عليهما السلام)

الأستاذ الدكتور
فليح كريم الركابي

الخطابة فن عرفه العرب منذ القدم وكانت لونا أدبيا له اصوله ومقوماته الفنية التي تدعونا ان نعده جنسا ادبيا اذا جاز لنا تجنيسه وهي: " فن القول الذي يخاطب مشاعر الناس مباشرة"[١] واسلوب ادبي يهدف الى الاقناع عن طريق الاستماع والنظر، وتختلف من خطيب الى اخر بحسب مهارته وثقافته اللغوية والفكرية وقد عرفها العرب منذ القدم وكانت مجالسهم واسواقهم ميادين لاظهار براعتهم في ذلك الفن وموضوعنا اليوم خطبة رائعة في جوانبها كافة الاوهي خطبة الامام علي ابن الحسين عليهما السلام في مجلس يزيد بن معاوية بعد واقعة الطف سنة ٦١ هـ. نقف منذ البدء بين شخصيتين الاولى اسيرة فقدت كل اهلها لكنها عملاقة تسلحت بالصبر والايمان على مقارعة الشخصية الثانية التي تقزمت بسبب طغيانها وكانت تعيش حالة انهزامية في داخلها بعد واقعة الطف وقد حاولت ان تغطي تلك الهزيمة بطرق شتى: منها اقامة احتفالية كبيرة في مجلسها بيد ان ذلك الحفل كان سلبيا عليها حين فضحها الامام علية السلام وأعاد الناس الى صوابهم وقد ضللهم اعلام السلطة انذاك بوهمية الانتصار فعرفوا الحقيقة ولاموا انفسهم بشدة يقول صاحب كتاب بحار الانوار: "لما أتي بعلي ابن الحسين عليهما السلام وراس ابيه الى يزيد بالشام قال لخطيب بليغ خذ بيد هذا الغلام فات به المنبر واخبر الناس بسوء رأي ابيه وجده وفراقهم الحق وبغيهم علينا فلم يدع شيئا من المساوئ الا ذكره فيهم)[٢] ان رسالة يزيد هذه واضحة وتمثل حربا واعلاما موجهين ضد الرسالة المحمدية وال البيت عليهم السلام الذي قتلهم وسبى عيالهم في واقعة الطف وهي محاولة منه لخداع الناس وتضليل افكارهم وايهامهم انه منتصر وانه على حق وكل من يحاربه او ينازعه على الحكم يعد خارجا على

سلطة أمير المؤمنين المزيف بيد ان ذلك الاعلام انقلب عليه وبالآ وكشف زيفه وجبروته وعرى سياسة الأمويين الارهابيه بوجه الرسالة المحمدية متمثلة بأل البيت عليهم السلام الذين وقفوا بشموخ بوجه الارهاب والطغيان وكان النصر الابدي حليفهم، والخزي والعار لأعدائهم حتى يوم الدين، فكانت انتفاضة الامام علي بن الحسين عليهما السلام عارمة بوجه الجبروت وكشفت الحقائق المعتمة بأعين عامة الناس في بلاد الشام وكان ذلك التحدي الرائع البذرة الاولى وقد بدأه الامام علي عليه السلام بالحمد والثناء لله العلي القدير والصلاة على نبيه الكريم وهذا دليل على توازنه ورباطة جأشه حين قال ((من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا اعرفه نفسي[٣])) لقد ركز الامام عليه السلام منذ البدء على ((الانا)) التي كانت محور الذات او الشخصية المتحدثة والذي دارت حوله الاحداث فكان المسير لها والمهيمن عليهما منذ البدء وهو الشخصية العليمة بكل شئ فضلاً عن انه لم يستعذ من تلك ((الانا)) بل ركز عليها فكان ضمير المتكلم مهيمناً منذ البدء على اجواء الخطبة.

ان هذه الخطبة المباركة تقسم على مقدمة اختصت بالثناء والحمدلله وهذا تحصيل حاصل فالامام (ع) يمثل التقوى وخير من يخاف الله سبحانه وتعالى ويخشاه اما القسم الاول فخصه بالتعريف بنفسه وحسبه وانه ابن الرسول الكريم (صلى الله عليه و اله وسلم) وهذه بداية موفقة اراد الامام بواسطتها قطع الطريق على تفكير الناس الذين اوهموا بان الامام (ع) خارج على امير المؤمنين وانهم سباياً تمكن منهم يزيد لقد كانت الرسالة واضحة من مستهلها وذلك ما قصده الامام (ع) بلغة بليغة هيمن الخطيب على مفرداتها بكل ثقة واوصل هدفه بقوة فكانت متممة لنهضة ابيه الامام الحسين (ع) وذلك هدف النهضة المباركة والسبب المباشر بالاتيان بالعائلة الكريمة الى ارض الطفوف، لقد اراد الامام علي بن الحسين (ع) ان يقول ان الاسلام باق والطغاة ذاهبون الى الحضيض وكانت تلك ادانة جريئة للمجرم في مجلسه ثم جاء القسم الثاني ليشرح حال ال البيت عليهم السلام وما تعرضوا له في واقعة الطف وبعدها والكلام كان ادانة لجماعة الحاضرين بسبب تخاذلهم وعدم نصرهم للحق جراء ذلك الفعل الشنيع الذي استهدف الاسلام الحنيف فكانت رسالة الامام (ع) مدوية الى يوم الدين والى جانب ذلك ذكر فضائل ال البيت (ع) ومكانتهم عند الله والعالمين ثم جاء القسم الثالث وقد اجهش له جماعة المتلقين بالبكاء وكشف الامام (ع) الحجب عن اعينهم وقد ادينوا

ادانة صريحة ومباشرة فكان الختام تأنيب الضمير والتوبة من لدن المستمعين الذين باتوا في حيرة من امرهم ان مصيبة الامام (ع) عظيمة وواقعها مؤلم والناس في غفلة من امرهم وقد أراد ان يوقظهم من تلك الغفلة فاسترسل في خطبته قائلاً ((انا ابن مكة ومنى أنا ابن المروة والصفا أنا ابن محمد المصطفى أنا ابن من لا يخفى أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى وكان من ربه كقاب قوسين او ادنى أنا ابن من صلى بملائكة السماء مثنىً مثنى أنا ابن من اسري به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى انا ابن علي المرتضى أنا ابن فاطمة الزهراء أنا ابن خديجة الكبرى أنا ابن المقتول ظلماً أنا ابن المجزوز الرأس من القفا انا ابن العطشان حتى قضى أنا ابن طريح كربلاء أنا ابن مسلوب العمامة والرداء أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء أنا ابن من ناحت عليه الجن في الارض والطير في الهواء أنا ابن من رأسهً على السنان يهدى أنا من ابن حرمه من العراق الى الشام تسبى)) التركيز على ضمير ((انا)) والالحاح على تكراره تسع عشرة مرة كان رائعاً وهائلاً في ايقاعه وقد قصد الامام من وراء ذلك شد انتباه السامع اليه لانه محور الخطبة او الموضوع الرئيس وانه خلاصة الاسلام والبقية الباقية من العترة الطاهرة وقد دكت ((أنا)) المسامع دكاً بحقائق دامغة اذهلت جموع السامعين وبصرتهم بالحقيقة واحدثت انقلاباً في مجلس يزيد وكانت الالف المقصورة مدوية في ايقاعها مثيرة في معانيها على الرغم من ان المؤلف قد ذكر بعض الكلمات مع الهمزة ويبدوا انه لو اسقطها لاستمرت ضربات الايقاع متساوقة منتظمة عند قراءة النص. ان الامام كان يقصد الذاتية قصداً لانها كفيلة بايضاح معناه الى جماعة المتلقين الذين شعروا بالامتعاظ والتأنيب. واقروا بالحق وعرفوه واقروا بذنبهم. بعد ان ارسل الامام رسالته الرائعة المعبرة عن ذاته الشريفة الصارخة بنسبه وحسبه وانه اشرف الناس اصلاً ومنبعاً.

وبعد ان تأكد ان رسالته وصلت مؤثرة في نفوس جماعة المتلقين عاد الى مخاطبة الجمع المحتشد قائلاً: ((أيها الناس ان الله تعالى وله الحمد ابتلانا أهل البيت ببلاء حسن حين جعل راية الهدى والعدل والتقى فينا وجعل راية الضلال والردى في غيرنا فضلنا اهل البيت بست خصال في قلوب المؤمنين، واتانا مالم يؤت أحداً من العالمين من قبلنا فينا مختلف الملائكة وتنزيل الكتب)).. خاطب الامام الناس باسم الله تعالى والحمد والثناء عليه مرة اخرى وهذا يؤكد عمق الايمان الراسخ في نفسه الزكية وقوة صبره وجلده بوجه المأساة الكبيرة التي

استوعب هولها ورعبها من كربلاء الدماء الى السبي والقهر على يد شذاذ العصر ليصب غضبه بهذا البيان الرائع وهو امام البلاغة والبيان دون جزع أو تذمر مما حل به لأنه امر الله وقد وصفه بالبلاء الحسن حين جعل راية الهدى والتقى فيهم وقد جمع الامام ثنائية رائعة تقابل ذلك حين جعل يزيد واعوانه دعاة الضلالة والردى والحاملون لراياتها كي يزيد من تقبيح صورته في انظار جماعة المتلقين فضلاً عن ذلك ان الامام (ع) اراد ان يجعل المتلقي يوازن بين الامرين ليدين نفسه بنفسه.

ان خطاب الامام (ع) فضح يزيد واحق الحق وهو يذكر فضائل ال البيت (ع) وخصالهم: العلم والحلم والشجاعة والسماحة والمحبة في قلوب المؤمنين ومكانتهم السامية بين الناس وان الله خصهم بالتنزيل وهو شرف مابعده شرف .

ان هذا الحجاج البليغ الصادر من لدن الامام (ع) يدل على شجاعته وعلمه وثقته بنفسه في أدق الظروف واخلاصه لعقيدته وتضحيته من اجل المبادئ الاسلامية السامية وانه فضح زيف السلطة الحاكمة وبطلان نهجها وعدائها للاسلام والرسول الكريم (ص) وقد كشف الحجب عن أعين الناس... وقاطع كلام الامام صوت المؤذن الذي أدان الطغيان وأهله ((فلم يفرغ حتى قال المؤذن الله اكبر فقال علي الله اكبر كبيراً فقال المؤذن أشهد أن لا اله الا الله فقال علي أشهد بما تشهد به فلما قال المؤذن أشهد ان محمداً رسول الله قال علي يا يزيد هذا جدي او جدك فان قلت جدك فقد كذبت وان قلت جدي فلم قتلت ابي وسبيت حرمه سبيتني ثم قال معاشر الناس هل فيكم من ابوه وجده رسول الله فعلت الاصوات بالبكاء)) انها الحقيقة ظاهرة لا محالة وان الله يظهر الحق ويزهق الباطل ويغرق يزيد في وحل هزيمته.. ان الاعلام الحسيني بعد واقعة الطف ادى دوراً رائعاً واكمل متطلبات الثورة على ادق صورة وهذا ما كان الامام الحسين عليه السلام يهدف اليه حين شد الرحال مع اسرته الكريمة التي اوصلت صدى واقعة كربلاء واهدافها الى الانسانية وعلى مر العصور فكانت نبراساً مشعاً على طريق الحرية والكرامة يباركها المستضعفون في العالم ويستمدون العزم منها.

ان واقعة الطف ثورة انسانية أممية مباركة اذ شاركت فيها القوميات والامم مجسدة بوهب النصراني والغلام التركي وجون الحبشي فضلاً عن العرب الذين هم مادتها بالحسين وال بيته الاطهار(ع)... ان اكمال الثورة واهدافها الداعية الى تثبيت دعائم الاسلام الحنيف في غاية الصعوبة جراء الاهوال والمصائب التي تحملها الامام وعمته السيدة زينب عليها السلام بشرف وقد أوصلوها بأمان على الرغم من القتل والتشريد والسبي والحرب النفسية المضادة التي جندها العدو في المجتمعين السياسي والمحيط الاجتماعي.

ان خطاب الامام علي بن الحسين عليهما السلام كان وابلاً من الحجج الدامغة وايضاح ما بعده ايضاح فأثار تأنيب الضمير في النفوس التي حاولت ان تتطهر مما حل بها من شعور بالذنب والخجل من الله ورسوله الكريم (ص) جراء ذلك الفعل الشنيع الذي ارتكب في كربلاء الشهادة وحينما احتدمت نفوس الناس ((قام له رجل من شيعته يقال له المنهال بن عمر الطائي وفي رواية مكحول صاحب رسول الله (ص) فقال له كيف امسيت يابن رسول الله فقال ويحك كيف امسيت امسينا فيكم كهيئة بني اسرائيل في ال فرعون يذبحون ابنائهم ويستحيون نسائهم وأمست العرب تفتخر على العجم بان محمداً منها وأمست قريش تفتخر على العرب بان محمد(ص) منها وامسى ال محمد مقهورين مخذولين فالى الله نشكو كثرة عدونا وتفرق ذات بيننا وتظاهر الاعداء علينا))

لقد هيمن ضمير المتكلم على مفاصل الخطبة ليعبر الامام (ع) عن مصيبته وهذا منطقي جداً فضلاً عن انه مستوحد في مجتمع قد كشر عن انيابه فاراد ان يدحرهم داخل نفوسهم وذلك ماتحقق الى جانب ذلك كان الزمن الماضي مهيمناً والتذكير بمناقب الرسول الكريم (ص) واهل بيته تتوالى على لسان الامام كي يوقظ الناس من غفلتهم وكان الختام مقرعاً لمشاعر المتلقين ومؤنباً لهم بسبب تخاذلهم عن نصرة الحق وقد توجه الامام بشكواه الى ربه سبحانه وتعالى.

وفي الختام نقول ان خطبة الامام زين العابدين عليه السلام من روائع التراث الخالد على الرغم من الظرف المحيطة به انذاك وهذا ما اكد للمتلقي انهم أئمة البلاغة والبيان وان الالهام يتدفق على السنتهم الكريمة وان الانا أو ضميرالمتكلم كانت المحور الرئيس الذي دارت حوله الخطبة وعرضت حال الجماعة وما تعرضوا له من قتل وسبي وان الامام علي بن الحسين (ع) كان فارساً دك حصون الطغاة في حضرتهم وفي مجلسهم، ببيان رائع وحجة دامغة.

هوامش البحث ومصادره

١- فن الخطابة – ارسطو طاليس ص٨٣.
٢- واقعية الحدث وحيوية المضمون – خطبة الجهاد للامام علي (عليه السلام). أ.د فليح كريم الركابي مجلة التضامن الاسلامي ع(٧-٦) س٧ ٢٠٠٥ ص٥٨.
٣- بحار الانوار – محمد باقر المجلسي – ط٤ مؤسسة الوفاء بيروت لبنان ١٧٥/٤٥.